بنجامين فرنكلين

ألف الكتاب أستاذنا عباس محمود العقاد.

لأن العقاد نصير الحرية، الى الحد الذى عرف الجمال بأنه الحرية مع أن الجمال عدْل الحرية وصنو لها ألف عن راعية من دعاة الحرية بنجامين فرنكلين.

والحرية عند عملاق الفكر العربى، حرية العقل وحرية الارادة وحرية الانسان من قبل ومن بعد

ومن هنا نفهم سر رسمة صورة قلمية لبنجامين فرنكلين لأنه من أصحاب المبادىء دعا الى احترام، الكرامة الإنسانية، ومحو العنصرية، وتدعيم التفاهم المشترك وتبادل احترام العقائد المختلفة، والتمسك بالحرية فى مختلف صورها، والدعوة إتاحة الفرص المتكافئة للجميع.. ولهذا سميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية والأدبية.

ولم يكن العقاد وحده بين الأفذاذ الذين أشادوا به فهو كما يقول الانسان وافر النصيب من ثناء الناس، ومن ثناء الذين لا يثنون على أحد إلا بمقدار، وقلما يثنون بمقدار.

حياه فولتير فسماه «فرانكلين المجيد الحكيم».

وخاطبه الرئيس واشنطون فقال: «اذا كان التبجيل إكراما للخير، وإذا كان الاعجاب إكراما للنبوغ، وإذا كان التقدير للوطنية والحب للإنسانية، خليقة أن تلهم عقل الإنسان الرضا والغبطة، فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التى لا تذهب سدى»

ومن الطريف ما قاله ليونل الفين Lionel Elvin فى كتابه رجال أمريكا.

«:كان للحياة فى نفسه حب وعلاقات شتى، وكان يحس المتعة باللغو ويجذب اليه القلوب ويملكها بتلك المودة التى تنجم من القناعة العميقة والصفاء القرير»

«الصفاء القرير» من أجمل الأوصاف التى تشير الى الرضا النفسى والسلام.. سلام الأعماق.

صورة قلمية أو نمط خاص كتابة العقاد عن فرانكلين

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب، غنية باللمحات والقدرات فإن تناولها قيمة كبرى يطرد القول فيها جوهريا، لا تفسده التفاصيل فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صورا متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام ولا بإحصاء الأيام ولم يكتبها ليبدأ فيها بسنة الولادة ويختمها بسنة الوفاة ويمضى فيها مع التقويم شهرا بعد شهر وعامًا بعد عام ولكنه عمد الى عرضها (لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها، وقد يتابعها القارىء فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه، ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء، أو يبقيها على حد سواء).

كتب فرنكلين سيرته التى سماها «مفكرات» فى أربعة أجزاء فى أوقات متعددة وأماكن متفرقة

كتب الجزء الأول فى انجلترا وهو فى الخامسة والستين من عمره

وكتب الجزء الثانى فى باسى بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أى سنة ١٧٨٤، أى فى الثامنة والسبعين.

وكتب الجزء الثالث بعد اربع سنوات ١٧٨٨ على اثر عودته الى فلادلفيا، أى فى الثانية والثمانين.

ثم الجزء الرابع ما بين ١٧٨٩ - ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة، أى فى الرابعة والثمانين.

يقول الأستاذ العقاد:

لا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة.

وأحسب ذلك لبساطتها وصدقها

يقول فرانكلين فى سخرية عذبة (إنه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التى تملك الشيوخ فى أخريات أيامهم دون أن يضجر أحدا من سامعيه لأنهم أحرار فى السماع أو الإعراض وأنه لا يكتم عن القارىء أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلا على سبيل الاعتذار «بلا فخر ولا ادعاء» ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء!)

وبمثل هذا الاسلوب كما يقول الاستاذ العقاد ، يجرد الفخر من شوكته المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب، ويقف «بانسانيته» الضعيفة القوية بين أيدى إخوته من الناس.. الله ياأستاذنا العقاد

كتبت عنه مرجريت كوسين Cousins كتابا حفل بالنوادر أعرض منه هذه النادرة التى ترسم بُعدا هاما من أبعاد شخصيته.. رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو فى السبعين فكتب إلى صديق له يقول: إنه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط وبدنه أضخم مما يناسب طوله، وعيناه رماديتان نفاذتان كالصلب الحديد. وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال. لا يلبس الشعر المستعار وشعره الطبيعى مرسل يتدلى على كتفيه، ومن الغريب أنه لم يخطه الشيب إلا قليلا مع أنه فى السبعين.. وقد تحدث إلى أعظم العظماء فى العالم ولكنه كان يصغى الى تعليقاتى المغردة كأنها تستحق الإصغاء حقا، وقد أبديت ملاحظاتى هذه بعد انصرافه لصديقى ايدرو تلدج فضحك وقال لى.. إياك أن تخطىء فهمه إن الدكتور فرنكلين كان مهتما حقا وأنت لا تعرف فإنه ليهتم بكل شىء وكل انسان. ويعنيه من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك».

وهنا يعلق الأستاذ العقاد محللا:

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شىء وبكل إنسان هو موطن العجب والإعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر المديد ولم تبخل على مهمة منها بحقها من العناية ولا على أحد بحقه من المبالاة، وبقى الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه من لايهتم بشىء ولا يكترث لخطب ولا يُرى على حال من القلق والاضطراب.

وليس أكبر من الحوادث والأنباء التى اعترضت هذه الحياة فى مراحل طريقها، بل طرقها العديدة،

أنشأ اخوه جيمس صحيفة «دى انجلاند كورانت» رابع صحيفة فى المستعمرات سنة ١٧٢١. ثم سجن لانتقاداته السياسية فحررها بنيامين فرانكلين وله من العمر خمسة عشر عاما!!

ولكنه لم يستمر فى مهنة الصحافة فقد عمل طباعا من ١٧٣٠-١٧٤٨ ثم عاد إلى الصحافة والحياة العامة فى الثانية والأربعين من عمره وفى سنة ١٧٤٣ أسس جماعة الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها وفى سنة ١٧٤٩ اشتغل بالبحث العلمى وأثبت الكهربية فى الصواعق واخترع عمود الصاعقة وذاعت شهرته العلمية.

ثم انخرط فى سلك الحياة النيابية دون أن يعزل عن أبحاثه العلمية.

والتفكير العلمى بتقنينه ودقته وموضوعيته والتزامه وجلده وصبره صفات نوابغ انعكست على أعماله جميعا حتى البسيط.. وهذا معنى قول الاستاذ العقاد (كانت ملكته العلمية ملحوظة فى جميع أعماله على اختلافها، فكان عالما فى سياسته، وكان عالما فى صناعاته اليدوية والفكرية، وكان عالما فى وظائفه الادارية، وكان عالما فى معيشته اليومية. (والملكة العلمية) بصيغة المفرد عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد وقد تتفرق بين كثير من العلماء، ولكنها فى جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بواكير صباه إلى ختام حياته.

ولما كانت الملكة العلمية تعنى فيما تعنى: القياس، والتسجيل فقد كان فرنلكين يرصد نفسه أى أعماله وسلوكه على الورق ويستدل منه على مبلغه من التقدم منه ومبلغ الصعوبة أو السهولة فى هذا التقدم على توالى الأيام!!

وبهذه الطريقة علم نفسه الكتابة أو التعبير الصحيح على الأقل فإن الكتابة الرقيقة موهبة يمنحها الله من يشاء.

وراض نفسه على محاسن الأخلاق فأحصى الأخلاق المثلى وحصرها فى الاعتدال، الصمت، النظام، العزيمة، القصد، النشاط، الاخلاص، العدل، التقدير، النظافة، السكينة، العفة

ومن الطريف ان بعض أصدقائه أنبأه أن يوصف أحيانا بالكبرياء فأضاف الى هذه الأخلاق، خلق التواضع.

ومن طرائفه أنه جعل لهذه الأخلاق، درجات يومية كل أسبوع، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها، ليبدأ الأسبوع التالى على عزيمة وبصيرة بخطة من النجاح والإخفاق.

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمى فى معيشته اليومية كما يقول الاستاذ العقاد وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها إلا على قدر معلوم وحساب مرقوم.

***

أما فرنكلين الكاتب فإنه يقول فى ترجمة لنفسه إنه لا يذكر زمنا لم يكن يقرأ فيه، وهذا مع ذاكرته القوية التى أعانته على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك

المحصول اللفظى، والفكرى الذى يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب. ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم «بلوتارك» وذكريات «زينوفون» ودراسات «لوك دنشافتسبرى» ورسائل «ديفوى» ومقالات «كوتون لمائر» وغيرهم.

***

أما فرنكلين السياسى فأهم ملامحه أنه

- لاحظ العبيد المحررين ظلوا فى حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة فقال ان العيب ليس فى الطبيعة أو هو دائم لا يتغير بتغير الأحوال، وإنما يرجع إلى نقص التعليم والمران، وأن الزنجى ذو ملكات حسنة واستعداد كامل للفنون، ولذلك يحذق الموسيقى ويبرع فيها، ولو تعلم فنا غيرها لما ظهر فيه.

- انه كان يرى أن الرق مفسدة للمجتمع الذى يشيع فيه، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويغرى الأطفال بالكبرياء والتجبر فى الأسر التى تملك الرقيق.

- كان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة، فليس الذهب والفضة معيارا ثابتا لها لأنها سلعة تتقلب بالأسعار كما تتقلب بسائر السلع، وانما تقاس الثروة، ثروة الأمة بمقياس الأعمال التى تحصل عليها، وليست هذه الأعمال وقفا على الصناعات البدنية وما اليها، بل هى تشمل أعمال الحضارة بأجمعها، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياسا لغناه.

ومن طرائفه أنه كان يشجع عملة الورق ويقول انها رمز العمل وأن الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون.

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين.

- كان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهى التى نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير.

***

فى الكتاب صفحات طويلة عن (السياسى) وكيف يصنع فى كل عصر.. ولم تكن هذه الأوصاف جميعا تنطبق على بنيامين فرنكلين.. ومع هذا بلغ من السياسة ذروة تكفى صاحبها فى باب التاريخ.

إن بلاده كما يقول الأستاذ العقاد (قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هى فكرة الاتحاد، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد).

ولم يكن فرنكلين عالم سياسة ليصل إلى هذه الذروة ولكنه (سياسى بالطبع) والسياسى بالطبع كما يقول الاستاذ العقاد مرة أخرى (يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التى تمليها الحوادث عليه).

***

نأتى إلى فرنكلين الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول باعتبار وجد أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر فى الديار الأمريكية.

وكانت الأندية الأدبية فى باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين.

وهنا يعلق الأستاذ العقاد فى إحكام وبلاغ.

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية فى عصره. فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معانى الكلمة إلا هذا المعنى الحديث الذى غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الإنسانية ثم شيوع التخصص فى كل معرفة منها.

ويزيد به الفلسفة التى غلبت على بحوث «ما بعد الطبيعة» وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها. فهذا هو مجال الفلسفة التى لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة، ولم يرد أن يكون منها» ولا نخاله كان يستطيع أن يكونه لو أراد، لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى فيه أن يأتى فيه بما يفيد.

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديمة، وهو (محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها فى أحوال الحياة اليومية).

***

وفى كتابة فرنكلين عمق إنسانى من محبة الحكمة، يتمثل فى مقاله الذى سماه «دفاع مسزبولى بيكر». وهو دفاع خاطئه تصارح المجتمع الذى ساقها إلى الخطيئة وحاسبها وحدها وترك غريمها.

وهنا أجرى فرنكلين على لسانها هذا الدفاع

أرجو أن تعلموا جميعا أن هذا الخاطىء قد أصبح قاضيا فى هذا الاقليم ولكن وددت لو كان جالسا اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق فى توقيع الجزاء على، وكنت اذن لا أبالى أن أذكر ما ذكرت من أمره. ولكننى أقول الآن مضطرة إنه ليس بالعدل ولا بالمساواة فى الجزاء، وأنه ليس من الأنصاف أن يكون المسىء إلىّ والمتخلى عنى والسبب الذى أوقعنى فى كل جريرة- آمنا مترقيا الى مناصب الشرف فى الدولة التى تدينني بوصمة العار والمسبة.

***

نأتى الى فصل فرنكلين «الانسان» وقد استهله الاستاذ العقاد بكلمات شاعت فى كتابة من كتبوا عنه أو هى صفات وضعت له :

دنيوى.. عصرى.. انسانى.. نفعى.. ساخر.. طينه عادية مستر امريكان.

هذه كلمات كما يقول الاستاذ العقاد، وصف بها فرنكلين، وأراد واصفوه بها أن يحصروه فى قشرة بندقة كما يقولون فى اصطلاحات الغرب، فأصاب كل منهم إصابة لا خلاف عليها، وأخطأ كل منهم خطأ لابد أن يستدرك عند الإحاطة بصفات فرنكلين..

والحقيقة أن هذا الفصل من أمتع فصول الكتاب.

***

الى هنا انتهى الجزء الأول من هذا الكتاب أما الجزء الثانى فقد سماه الاستاذ العقاد: من فرانكلين.

وفى هذا الجزء طائفة من مأثورات فرنكلين مثل

- ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان

- الفقر يطلب بعض الأشياء.. والترف يطلب كثيرا من الأشياء والطمع يطلب جميع الأشياء.

- السمك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام.

- ما من واعظ أوعظ من النمله، وهى لا تنبس بكلمة

- ثلاثة يحفظون السر إذا مات منهم اثنان

- افتح عينك كلها قبل الزواج.. ولا تفتحها كلها بعده.

***

ورسائل فرنكلين متعة وحدها

كتب مرة رسالة الى صديقه سماها (معاهدة مع سيدة)

استهلها بقوله:

ما أبعد الفارق بينك وبينى!! إنك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربو على الإحصاء، وأنا لا أرى لك إلا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى! ذاك ضرب من الطمع يوحى إليك أن تعظمى عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لابقيه فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات.

(المسألة) كالألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الألمعية، ويستمع لها عشرون فيغتبطون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبى الذى تريدين أن يخصنى منها. وقد يحق لى اذن أن أطالبك بمنعها أن تصل الى اذن غير أذنى.

أقول إن قوله هذا مع براعة أسلوبه، فيه مغالطة .

ولكن الطريف هنا أنه وضع فى هذه الرسالة معاهدة حب.

المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقة بين الطرفين

مدام بريون ومستر فرنكلين

المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها.

المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء

المادة الرابعة

إذا وحد معها فعليه أن يتناول الشاى وأن يلعب الشطرنج وأن يستمع إلى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها.

المادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها

المادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء

المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء،

وتمضى المواد الأخرى فى سخرية وطرافة ثم يختتم الرسالة بقوله:

وأرجو أن أسمع رأيك فى هذه القواعد المبدئية.. وفى رأيى أنها أصدق تعبيرا عن المقاصد والنيات التى يرضاها الطرفان من أكثر المعاهدات، وبودى أن ألح وأصر على قبول المادة الثانية وإن لم يكن أملى عظيما فى قبولها، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وإن كنت على يأس من لقاء المرأة التى تستولى منى على حب يضارع حبى اياك أيتها الصديقة العزيزة .

***

وهكذا يسافر بنا الاستاذ العقاد فى أعماق شخصية ذات آفاق وأعماق